حب قديم

الاستاذ عبد الهادي خلف التميمي أديب موهوب وشاعر له قطعه الشعرية الجميلة ، وهو اليوم يتحفنا بقصته التي جاءت دليلا على قابليته وأسلوبه الرشيق في كتابة القصة ، ويعلن انظامه لأسرة البيان التي ترحب بهذا العضو الجديد ...

ـ البيان ـ

كنا نجتمع معه يومياً ، ولانفترق مرة إلا لنجتمع مرة أخرى فى النادي أو فى احدى [الكازينوات] ، حتى أصبح الواحد منا جزءاً من الاخر . . . وعند اجتماعنا نروح في احاديث متنوعة ، و كثيراً ما نعرج في احاديثنا الى ذكريات الماضي ، لحد صرنا نجتر الذكريات اجتراراً من غير أن يأخذنا السأم أو ينفذ الى قلوبنا الملل ... وانقطاع الصديق [ع] عنا اياماً ، حدث مهم بالنسبة لندوتنـا الرباعية المتجولة ، والصديق « ع » شاب مرح النفس ، خفيف الروح ، بارع في الحديث ، لا يدع فسحة من الوقت تمر دون ان يزف نكتة مليحة ومستملحة ، تغرق فيها بضحك مرح مستمر وليست هذه الصفات كل سجايا ومزايا الصديق « ع » فهو بالاضافة الى تلك يعشق الأدب ويفنى فيه ، و كثيراً ماينظم بعض قطع غنائية جميلة يعرضها علينـا . . . انهى دراسته العالية من كلية الطب واسندت اليه وظيفة طبيب في احدى المستشفيات ، وراح يزاول مهنته باخلاص الفتى المحب للخير المتهالك على المروءة ... ثم هو لم يعودنا — كما قلت — انقطاعاً عنا ولذلك لم اكد استقر في مقر عملي حتى تناولت آلة التليفون واتصلت به ، فاعلمني خادمه بانه يتمتع فى اجازة ، وعلى الاغلب انه مريض ، تلقيت الخبر بقلق واشفاق وعلى الأثر غادرت محلي في طريقي اليه ، و كنت اثناء سيري نهبة للوساوس ، لعلمي بأنه يزاول عملا تحف به المخاطر ، لانه كان يعالج شعبة المسلولين ، ولا ادري لم اختار هذا اللون من فروع الطب ، واذكر انني سألته مرة لم اختار هذا النوع فلم يجبني اكثر من — غاية في نفس يعقوب — وعندما وصلت بيته بادرت خادمه : —

— لعل الدكتور بخير ، لم يحر جواباً ، والقيت السؤال مرة ثانية ، فلم ينبس ببنت شفة ، فداخلني خوف شديد ، واحسست بأن قلبي يكاد يترك محله ، فقلت : أو أنت اصم . . ؟ ؟ . . أين الدكتور . . ؟

— في غرفته — قالهـا ببرود مقيت ، وكأنه أنهى حديثه ... فقلت : أهو مريض جداً . . ؟ ؟

— أجل . . وماذا يشعر . . ؟ ؟

— هل انا دكتور حتى أشخص مرضه . . ؟ ؟ لقد كانت صفاقة هذا الخـادم ثقيلة الوقع على نفسي ، حتى انني هممت ان القي عليه درساً في الأدب ، لو لم تصـل إلى أذني كلمات صديقي يدعوني فيها الى الدخول ، فهرعت اليه وبي من الغضب الشيء الكثير ، لقد وجدت صديقي وراء منضدته في لباسه البيتي وقد أمسك قلماً وامامه اوراق مبعثرة وكأنما كان منهمكاً فى كتابة شيء فبادرته . .

— لعلك بخير يا « ع » . . ؟ ؟

— أجل

— لم لم تنبئنا بمرضك ؟ ؟

القوي العزيز ».

وفجأة استيقظت من النوم ، واذا بي أجد نفسي لا ازال متعبا ، اردد عبارة « — يا ليتني كنت بغلا — وزوجتي بجانبي مرتبكة لما تسمعه مني ، والغزالة وقتئذ كانت قد آذنت بالشروق .

وما ان اكملت عرض هذه القصة على صاحبي صالح الا وراح هو الاخر ، بكامل رشده وتمام يقظته ، يردد عبارة يا ليتني كنت بغلا .

الكرادة الشرقية ببغداد — جمال مهدي الهنداوي

— لأنني لا أريد ذلك !

— غريب ؟ !

— وما وجه الغرابة يا صديقي ! ؟

— اليس من حق اصدقائك ان يعلموا بمرضك ؟

— ومن ادراك انني مريض ؟

— ألم تنطوي على نفسك شهراً وتقبع في دارك لا تريم ؟؟

— أهذا كل أعراض مرضي ؟ ؟

— وعيناك الحمراوان ووجهك الشاحب !

— لا يا صديقي ، كل ما بي شوق الى رهينة قصيرة الامد أخرج بعدها انسان آخر لا يمت الى « ع » بصلة ،

— الان ادر عينيك الى تلك المنضدة القابعة في زاوية الغرفة . . .

— ادرت عيني والقيت على المنضدة التي اشار اليها نظرة خاطفة ، فلم أصدق عيني .. فقد كان على المنضدة كأس فارغة تجاورها قنينة [ويسكي] وفي التو ارتفعت من حنجرتي صيحة تعجب قوية وحينذاك ادركت اسباب احمرار عيني « ع » واضطراب الفاظه .. لقد كان صديقي مخموراً وليس مريضاً فقلت : —

— أأنت تشرب هذا .. ؟ ؟

— نعم أشرب هذا .. — قالها بلا أبالية واهنة ...

— ولم كنت تملأ آذاننا بنصائحك ومواعظك الروتينية كلما تضمنا مائدة واحدة .. ؟ ؟

— كنت سخيفاً .. ؟ ؟

— ومنذ متى تناولت الكأس الأولى .. ؟ ؟

— منذ مدة قصيرة مع الأسف ..

— وهل ثمة أسباب تدعوك الى الاسراف بها الى هذا الحد .. ؟

— سبب واحد وهو ان اكون في زمرتكم منذ اليوم — قال هذا وقد ترك كرسيه وذهب الى المنضدة ؛ ، أما أنا فرحت في متاهة عميقة ، ولا استطيع ان احدد نوع الاحاسيس التي اجتاحت فؤادي ، لقد انقلب « ع » أمامي لغزاً مغلقاً ، فليس في قسماته ما ينبيء انه مرح طروب ، وليس فيها ما يوضح أنه حزين تاعس .. وانما كان هناك شيء من هذا وذاك ... .

— خذ كأسك هذه .. — وقدم الكأس الي ، اما هو فراح يسكب في فمه كل ما فيها ، ، وكأنه شريب مدمن على الشرب ، من غير ان يحدث طعم المشروب في نفسه ذلك التقزز الذي يشعر به كل من تعاطى الشرب . . . ما أقوى الانسان على التهديم . وما أوهنه على البناء .. أفي يوم واحد يأتي « ع » على كل مثله العليا النفيسة ... .

— الا تريد ان تشرب . . ؟ ؟ — القى علي سؤاله هذا بعد ان فرغ من احتساء كأسه واستوى على كرسيه مرة ثانية

— القيت ما في الكأس في فمي جرعة واحدة كما فعل « ع » ولم اكتف بهذا القدر اليسير — كما تعودت — بل ذهبت وملأت الكأس وأتيت على بقيتها ولم اكد افرغ منها حتى سمعته يقول : —

— ان ارادتنا تخضع في كثير من الاحيان الى قوى خفية تسيرها كيف تشاء وتفعل بها ما تشاء . . . ونحن وراءها مسيرون كأنما نحن عجلة عربة تجرها خيول مطهمة جامحة ، فتسحق في سيرها كل ما يصادفها دون ان تستطيع الابتعاد حتى عن القاذورات التي تلاقيها . .

— هذا ما كنت اعلمه من قبل ولذلك لم اكن اسخط على أخي « ع » حين كانت حياته تسير به من سيء الى اسوأ .

— مسكين « ع » لقد نال من ضربات الحياة ما لا يطيقه حمار او يتحمله بغل ...

— الا تعلمني لم شربت الخمر . . ؟ ؟

— ولم شربتها أنت ؟ ؟

— شربتها لان العدوى النفسية سرت الي من هذا وذاك !

— الم تحاول علاج هذه العدوى . . ؟ ؟

— حاولت .. ولكنني فشلت ..

— والأسباب ؟ ؟

— لأنني اتسلى بها ، أما أنت فلم تسير اليك تلك العدوى رغم انك تجالسنا في أغلب الاوقات

— لأنني كنت أحمل مناعه قوية

— وهل وهنت مناعتك الان ؟ ؟

— لم تهن فقط ، وانما توفيت ، قالها بمزيج من السخرية والألم . ثم راح يغير الموضوع قائلاً ..
— سأكون اديباً مزاحماً لك .
— لقد رأيتك تشع ادباً !!
— وقد نظمت قصيدة بعنوان — على جثمانها — .
— الا تسمعني مطلعها : —

الى عب الكؤوس تتوق نفسي ففي عب الكؤوس بذوب نحسي
فما آنست أحلاماً عذاباً ولا سمر الوجود بغير كأس

— والى هذا الحد وصلت .. ؟ لقد قفزت بحبك للكأس قفزات جعلتنا نسير وراءك ...
— ولا فخر يا صديقي . وسأراك تسير ورائي في دنيا الأدب ايضاً ..
— هذا فخر لي ..
— لقد كتبت قصة حقيقية واكاد افرغ منها قريباً لانني وصلت الى الفصل الاخير منها ..
— أفبهذه المدة القصيرة تكون أديباً ومؤلفاً
— ولم لا ، الست عبقرياً ،
— عبقرياً .. ؟
— إني اراك
— لقد رأيت على وجهك وعثاء سفرة من وادي عبقر
— لا تهزأ بي يا صديقي ، فليس للهزأ مكان في هذه الدار واعلم بأن قصتي هذه ستحدث فيك الماً عميقاً
— وماذا أسميتها ؟
— اسميتها — حب قديم
— قاتل الله الحب ، والمحبين
— وهي — كما قلت — قصة حقيقية وقعت حوادثها هنا وقبل أيام ، قال ذلك بتأثر عميق حتى خلت ان كلماته تطمسها آهة عميقة رغم تلك الابتسامة المصطنعة التي يتذرع بها ، ثم ترك الكرسي وتوجه الى دولابه ، وأخرج قنينة « ويسكي » جديدة وراح يعمل في ازالة غطائها وعند انتهائه ملأ الكأسين الفارغتين وقال : —
— سأقص لك موجز القصه اذا احببت وسترى بأني سأكون اسكندر دوماس الثالث ، لان هذه القصة حقيقية وهي قصة حب عذري ، وقعت حوادثها في القرن العشرين واستطيع ان أجزم لك بأن الخيال كان بعيداً عن فصولها كما ان مكانها لا يزال ندياً ، وحوادثها لما تزل رطبة ، فخذ يا صديقي كأسك ، وغذ بها شعورك .
— تناولت كأسي واحتسيت قسماً منها ، لا أدري أي شعور غريب تسلط علي وأي نوع من احساسات تجتاح فؤادي
لقد تغير « ع » في خاطري تغييراً واضحاً ، وأضحى أمامي شبحا هزيلا بائسا ، فقد تلاشت من فم صاحبي تلك الابتسامة الساخرة وبانت على قسماته صور الألم الصارخ العنيف ، وراحت الفاظه تصل الى أذني مضطربة هادئة ، وكأنني أحس بأن صدره يعاني أمواج عبرات تتكسر فيه فسنى الم منه ورأيته يترع كأسه كما تعود ان يترعها دفعة واحدة ، وانا أمامه كأنني قطعة جامدة لا حراك فيها ، ثم رأيته ينظر الي ويقول : —
— أ أنت على استعداد لسماع هذه القصة ... ؟
— نعم ، نعم ، يا « ع » ، أريد ان استمع اليها ، كيف لا وهي تنبعث من فمك .
— هيا اذن لاريك مكان الفصل الأخير من القصة
— مضيت خلفه الى غرفة كانت كما أذكر غرفة نومه وانا أحمل دنيا كاملة بداخليتي وان احاسيس مؤلمة تتفاعل في فؤادي ، دخلت وانا يجذبني الى الدخول هاتف غريب ، لم ار شيئاً يلفت النظر ولكن صاحبي قال : —
— انظر .. هنا كانت بطلة القصة في اليوم الاول من انقطاعي عن عملي — لاول مرة الاحظ ان في الغرفة سريرين متقاربين ... لم يثر وجود السرير الثاني شكوكا في نفسي لان منطق صاحبي كان مؤثراً كل التأثير في نفسي فقد صرت أشعر بأن صوته يرتفع من أعمق أعماق قلبه وتنبعث الفاظه باردة كالثلج على جسدي ... وكان المكان مليئا بالرهبة والخشوع ...
— واين هي الان ..؟ .. قلتها بدافع حب استطلاع ملح
— ذهبت كما ذهبت بطلة قصة غادة الكامليا — أفهمت .؟

— ماتت مصدورة . . ! ! وهل تركت وراءها رسائل كما تركت مرغريت جوتيه . . ؟

— لقد تركت وراءها ذكريات لم تسجلها هي وطلبت إلي ان اسجلها انا . . .

— اماتت هنا . . ؟

— اجل ماتت هنا وعلى هذا السرير وفي هذه الغرفة . .

— ومن كان بجانبها على هذا السرير . . ؟

— حبيب ثان لم يذق منها غير الهجر والحرمان . . ؟

— الها حبيبان . . ؟

— أجل لها حبيبان ، حبيب سعد ، وحبيب شقي . .

— أ إلى هنا تنتهي الرواية . . ؟

— أجل

— واين فصلها الأول . . ؟

— الفصل الاول يدور حوادثه في قرية حبتها الطبيعة فتنة وسحراً . . . تجثم على صدر الفرات بدورها البسيطة المتواضعة وبساتينها الكثيفة وحقولها الملحة بالخضرة . . . وبأهاليها العرب الاقحاح . . وفي دارين متجاورين شاء الحب ان يربط برباطه المقدس قلبي طفلين وادعين أطلا على العاشرة من عمرهما ، ، وتشاء الايام ان تباعد بينهما ، بسبب سني الدراسة المتوسطة والثانوية . ، فيكون الفتى بعيداً عن فتاته ، وتكون الفتاة بعيدة عن فتاها ، ويلهو القدر كما تعود ان يلهو ، فيصاب أخ الفتاة بمرض [الدق] كما اعتاد اهل القرية تسميته او — التدرن الرئوي — كما يسميه الطب الحديث ، فيعود الفتى في عطلته الصيفية وقد نجح الى السنة الاخيرة من دراسته الاعدادية ، فيعلم بالقدر السائر الى أخ الفتاة الذي هو صديقه . فلا تمضي أيام حتى يخطف الموت روح هذا الشاب الذي أشرف على الخامسة عشرة ، ويكون يوم وفاته يوماً مشهوداً في دنيا القرية الوادعة فتضطرب القلوب فهي دامية ، ويحز الالم النفوس فهي حزينة . . . لان المودة والاخاء كانا يجمعان بين قلوبهم . . وينطوي الحبيب على نفسه ساعات . . ومن ذلك اليوم يضع الفتى لحياته القادمة خطة ويرسم في ذهنه غايتين ، وتسير الايام راكضة هادئة ، وتعبر الشهور سراعاً ، وتنصرم سنوات ست ويسجل الفتى في نهاية كل سنة نجاحا حتى يشرف على السنة الاخيرة ، ويعود في عطلته الصيفية كما اعتاد الى قريته ، فلا يلتقي بالاهل والاحباب ، حتى يعلم إمراً . . . . أمر زلزل كيانه وهدم أعصابه . . . لقد ترامى اليه النبأ مفجعاً كالنعي قوياً كالموت ، كالحاً كالنحس ، حاداً كالسيف . . . لقد علم ان حبيبته قد زفت قبل أيام الى معلم نقل حديثاً الى قريته . . . وان المعلم يقطن داراً متقابلة مع دارها ، وان بينهما رابطة حب كانت تلوكها السن القرية ، للامر الذي اضطر المعلم ان يتزوجها وهي الان حامل ، ، تنتظر ابن حبيبها الذي سيحيل حياتها السعيدة الى فردوس من فراديس الحب . . . ثم يشاء القدر ان يفضح أمره ، وتحمل الصدمة القاسية بصدر قوي لئلا يكون هدفاً لسخرية الاصدقاء . . . وتطلبه ادارة الكلية بعد مرور شهر لاداء التطبيق ، فيرى في ذلك مهرباً له من ذكرياته ، وتخلصاً من آلامه ، فيعود الى مدرسته وفي قلبه جرح بليغ وفي فؤاده حب مختنق مكبوت ، ، وتمضي السنوات بطيئة كالحلبة ، ، ويلتقي بكثير من الفتيات ، فلا يقبل على أحد منهن ، ولا تستهويه فتنتهن ، لانه لا يرى فيهن غير الغدر المقيت والخيانة اللعينة ، ومضى دؤوباً على عمله وليس هناك من يحس بأن هذا الشاب المرح الهادئ يحمل في مطاوي قلبه حباً يائساً ، غير قلمه الذي يبثه احياناً بعض وجده وطرفاً من غرامه . . .

ويشاء القدر إن يلهو مرة أخرى . . . وتعبث اصابعه القاسية في نياط قلب الفتى الهادئ ، فتوسع جرحه عمقاً وتفتحه واسعاً ...فقد عاد الفتى الى عمله نشيطاً وراح يزور مرضاه ، فلم يكد يقترب من مريضه الثالث حتى يبصر منظراً منظراً سيبقى خالداً في ذهنه الى الأبد الابيد . . . وليس في وسع الالفاظ ان تصوره . . . لقد أبصر حبيبته على أحد الاسرة وهي تسعل سعالا جافاً فتقذف برئتيها دماً كأن تريد ان تلطف سعالها ، فيتسمر الطبيب في مكانه . . وتضطرب الخواطر ثقيلة في ذهنه ، فيعود الى غرفته ليفكر . . وفي اليوم الثاني يدبر امراً ، وتحمل حبيبته الغادرة الى بيته دون

ان تعلم هي انهـا في بيت الشخص الذي هجرته . . . وتتولى احدى الممرضات تمريضها والسهر على راحتها . . . ويعهد هو الى احد زملائه بعيادتها كل يوم ، ولا يدخل عليها إلا عندما تعلمه الممرضة انها نائمة ، ، تصور يا صديقي حالة هذا الفتى العاشق الذي يرى كل يوم حبيبته الغادرة وهي تسير سريعة الى الفناء ، ، أريد ان أوجز اليك ، ، فلا أصف لك ايامه الحلوة المرة ، وتقترب منية [أ] ويثور في قلب الفتى حب قديم ، ولد منذ عشرين سنة ، ويتجسم في ذهنه وقلبه هذا الحب فاذا به قوي متين . . ويخرج اليه صديقه في احدى الامسيات ليعلن لـ [ع] ان مريضته تطل على الابدية وانها الان تصارع جبروت الموت ، فيندفع بحركة غير ارادية ، كأنما لم يكن ينتظر هذا اللون من المصير ، فيدخل عليها ويجلس بجانبها على السرير ، وتشعر الفتاة الذاوية به فلا تعرفه بادىء ذي بدء ، لان السعال اشتد عليها ، وتصل الى يديه بعض قطرات من صدرها ، فيرنو الى الدم بعينين جاحظتين ، وتستحيل الفتى الى كتلة من احاسيس ومشاعر وتدور الدنيـا في ذهنه دورات سريعة خاطفة . ويضطرب قلبه . . وفي تلك اللحظة لم يتمالك نفسه ويصبح خادماً مطيعاً للعاطفة العنيفة ويهرب العقل ضعيفاً أمامها ، فلا يشعر إلا ويده ترتفع الى فمه واذ تلك القطرات الدموية تمصها شفتاه واذا بعلم الطب في عرفه محض سخافة . . فتتأوه الفتـاة وتئن انات موجعة وتذكر بين انينها صوت حبيبها وزوجها فيحترق الفتى وتثور في نفسه غيرة ما حقة ويستولي عليه حسد هائل ، ، وينطلق صوته أجشاً مبحوحاً . . .

— أ إلى هنا . . وتذكريه . . ؟ !

فتفتح المسكينة عينين تنطفئان رويداً رويداً . . فتراه . . وتحدق فيه كثيراً وتعرفه . . .

— أنت . . أنت . . أنت هنا . . ؟ ؟ !

— نعم . . . انه بيتي . .

— ولمـاذا حملتني اليه . . ؟

— لتموتي بين ذراعي . . لاني لا أزال أحبـك رغم كل شيء . . .

— أ أنت تقول الحق . . ؟ !

— هـذا هو البرهان . . — والقى بجملته وسط عبرات متحطمة متكسرة . . . والقى برأسه على صدرها ، وتحرك رأسه عالياً ، فاطبق بشفتيه على شفتيها وراحا في صمت رهيب كالقبر . . . وفي تلك اللحظات القصـار انسكب من قلب الفتى حب عشرين عاماً لم يعـد يعلم ما حدث بعد ذلك من أمرها شيئاً . . .

سكت صديقي بعد ذلك وراح يحدق في السرير الذي ماتت عليه الفتاة ، وكأنما يبصر شيئاً لا أبصره ، وران صمت علينا ثقيل — اثارت القصة في نفسي رغبة عنيفة ملحة وكنت اشتاق الى نهايتها شوقاً ملحاً لا يهدأ فقلت له : —

— وأخيراً كيف تمت القصة . . ؟

— ستقصها علينا الممرضة . . .

— وما دخل الممرضة في قصتك . . ؟

— لانهـا هي التي حملت الفتى المغمى عليه من صدر الفتاة الميتة . .

— وأنت . . . أين كنت . . ؟

— كنت انا المغمى علي لانني أنا الحبيب التاعس المنكود.

بغداد — عبد الهادي خلف التميمي

ابتسم كيفما كنت . .

جرد القلب من الهم ودع ... عنك حزناً فدى العمر قصير
كن كطفل دأبه حب المرح ... لم يروع قلبه صوت نذير
سامر الكأس بقلب فارغ ... واحتسيها من فم الظبي الغرير
إن ذا العقل يقضي دهره ... شارد الفكر ومنكود الضمير
كغريق لعب الموج به ... أو كطير يختشي بأس النسور
أنت بالرغم ستحيا هكذا ... كرة تقذفها أيدي الدهور
فمتى ما عبس الدهر ابتسم ... وطأ الخطب بأقدام الجسور
ليراك الدهر صلداً صامداً ... مثل رضوى لم تزعزعه العصور

الناصرية — عباس الملا علي